الحجاج:
رؤية تاريخية



د. أيمن أبو مصطفى

الحجاج

رؤية تاريخية

د. أيمن أبو مصطفى

الحجاج رؤية تاريخية

أولا: مفهوم الحِجاج.

تختلف تعاريف الحجاج (Argumentation) من حقل معرفي لآخر، ومن زاوية استثمارية إلى أخرى، وحسب العلوم التي يوظف داخلها أساسا أو عرضا، ووفق قوامها الابيستمولوجي أو المنهجي.

إلا أن التعاريف كلها، وكيفما كانت انبثاقاتها المعرفية وحقولها التجريبية، يجمعها في النهاية الخيط الرابط بين قواعد المنهج الحجاجي وغاياته، وهو الخيط الجامع بين العقلية والإقناعية في القضايا التي والأطروحات التي تساق حجاجيا، وهذا ما يؤدي إلى صدق الحجاج ومشروعيته، كلما احتاج المقام الحجاجي أو محيطة إلى تبرير مساطره الاستدلالية أو الإجرائية، على صعيد اللغة أو الخطاب[1].

الحجاج لغة:

عند البحث عن المفهوم اللغوي للحجاج في الثقافة الغربية، نجد أن كلمة Argument أخذت من الفعل اللاتيني Arguere والتي تعني جعل الشيء واضحًا ولامعًا وظاهرًا، وهي بدورها أخذت من جذر إغريقي argues ويعني أبيض لامعًا.

ويشير المصطلح Argue في اللغة الإنجليزية الحديثة إلى وجود اختلاف بين طرفين، ومحاولة كل واحد منهما إقناع الآخر بوجهة نظرة من خلال تقديم الأسباب أو العلل التي يراها حجة مدعمة أو داحضة لفكرة أو رأي أو سلوك ما.

ويحدد لالاند معنى الحجاج من خلال تقديم المعطيات التالية[2]:

- المحاجة أو الحجاج: هي سلسة من الحجج تنتهي بشكل كلي إلى تأكيد النتيجة نفسها، ويرى أن الحجاج طريقة في تنظيم الحجج واستعراضها أو تقديمها.
- الحجة: ويعتبرها بمثابة استدلال موجه لتأكيد قضية معينة أو دحضها، أو تفنيدها.

---

1 أزاييط؛ بنعيسى، مقال بعنوان: (البعد التداولي في الحجاج اللساني)، ضمن كتاب: **الحجاج مفهومه ومجالاته**، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، 1431، ص238.

2 مقدمة كتاب: **الحجاج مفهومه ومجالاته**، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، 1431، ص2.

- الدليل: عملية توجه التفكير العقلي بصورة يقينية ومقنعة.
- البرهنة: هي استنباط يوجه لتأكيد أو إثبات سبق نتيجة، وذلك بالاستناد إلى مقدمات معترف لها بميزة الصدق أو الحقيقة.

والمتأمل للمعنى اللغوي لكلمة حجاج في التراث العربي، يجد أنه يقترب كثيرا من معناه الاصطلاحي، فالحجاج لغة من حاج و" حاججته أحاجُّهُ حجاجًا ومحاجَّة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها ... وحاجّه محاجّه وحجاجًا نازعه الحجّة... والحجّة الدليل والبرهان وقيل: الحجة ما دافع به الخصم... وهو رجل محجاج أي جدل، وحجّه يحجُّه حجًّا: غلبه على حجَّته، وفي الحديث: فحجَّ آدم موسى أي غلبه بالحجة"[3]. والحجة هي " مادُلَّ به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد"[4].

ونستنتج مما تقدم أن لفظة الحجاج قد تأتي بمعنى الخصومة، أو الجدل، أو الغلبة، ومعنى ذلك أنها تكتسب دلالاتها بحسب الاستعمالات المتداولة لها بين الناس. هذا وتدل كلمة الحجاج بحكم صيغتها الصرفية على معنى المشاركة في تقديم الحجج وعلى مقابلة الحجة بالحجة[5].

وقد ورد في أساس البلاغة "حاج خصمه فحَجّه، وفلان خصمهُ محجّوج"[6]. ومعنى (محجوج) أي مغلوب والشخص المتكلم الغالب المحاجج، والسامع المحاجج المغلوب، أي أنه اقتنع بحجّه المتكلم.

كما ورد لفظ الحجاج في عدّة آيات من القرآن الكريم منها:

قال تعالى: (ها أَنْتُم هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لكُمْ بِهِ عِلْمٌ فلِمَ تُحَاجُّون فِيمَا ليْسَ لكُمْ بِهِ عِلْمٌ)[7].

وقوله تعالى: (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ)[8].

---

3 ابن منظور؛ لسان العرب، مادة (حجج).

4 الجرجاني؛ علي بن محمد، التعريفات، ت: محمد بن عبد الحكيم القاضي، دار الكتاب المصري، ط1، ص96

5 صولة؛ عبدالله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفارابي، بيروت، 2007، ص9

6 الزمخشري؛ أساس البلاغة.

7 آل عمران: آية 66.

8 الأنعام: آية 80.

وأيضًا قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ)[9].

يُلاحظ من الآيات السابقة أن الخطاب القرآني، فضلًا عن كونه موجهًا إلى متلقي فعلي أو محتمل، فإنه مسرح تتحاور عليه الذوات وتتجادل ويحاج بعضها بعضًا، مما يدل على أنه – الخطاب القرآني – قائم على الحجاج فيما " يراد به إثبات أمر أو نقضه"[10].

الحجاج اصطلاحًا:

قبل أن نستعرض المفهوم الاصطلاحي للحجاج، لابد أن نبين أين يكون الحقل الحجاجي؟ وفي ماذا يكون؟

يرى طه عبد الرحمن بأن الأصل في تكوثر الكلام هو صفته الخطابية بناء على أنه لا كلام بغير خطاب، إذًا حقل الحجاج هو الخطاب، والأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج إذًا الحجاج يوصف بأنه طبيعة كل خطاب، والأصل في الحجاج هو صفته المجازية، على أنه لا حجاج بغير مجاز[11]. والحجاج حسب هذا التصور، يتمثل في القواعد الداخلية للخطاب، الذي يرتكز على اللغة، وبذلك يكون الحجاج شكل لغوي ومضمون معرفي، يهدف إلى طرح قضية للنقد، وذلك حسب تعريف كريستيان بلانتان crstianne plantene حيث يقول:" أن للمحجاجة وجه معرفي، أن تحاجج يعني أن تمارس فكرًا صائبًا وبواسطة الإجراء التحليلي والائتلافي نبني مادة ثم نطرح قضية للنقد، إننا نفكر ونفسر ونبرهن بواسطة الحجج والعلل والدلائل. كما نقدم الدوافع وبهذا تكون خلاصة المحاججة اكتشافًا، حيث تنتج إبداعًا أو لا شيء أقل من المعرفة"[12].

---

9 الشورى: آية 16

10 وهبة؛ مجدي، معجم مصطلحات الأدب واللغة، ص144

11 عبدالرحمن؛ طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص213

12 بلانتان؛ كريستيان، لغة المحاجة واللغة الواصفة، ت: نصيرة الغماري، مقال نُشر في الشبكة العنكبوتية.

كما أنه عند أندرسين Andersen ودوفر Dover طريقة استخدام التحليل العقلي والدعاوى المنطقية، بغرض حل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات محكمة، والتأثير في وجهات النظر والسلوك[13].

أما الحجاج عند بيرلمان هو دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم[14]. والغاية من ذلك هو جعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة الإذعان، فأنجع الحِجاج ما وُفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه.

إذًا الفائدة من الحجاج هي محاولة استمالة وإقناع شخص بالقضية المعروضة عليه، أو زيادة شدة إقناعه، لحمله على عمل أو تهيئته له.

وتُعد الاستمالة من أهم العناصر التي بُنيت عليها تعريفات الحجاج، عند الكثير من الباحثين، أمثال ريك Rieke وسيلارز Sillars، حيث يعرف هذان الباحثان الحجاج بأنه عملية عرض دعاوى تتضارب فيها الآراء مدعومة بالعلل والدعامات المناسبة بغية الحصول على الموالاة لإحدى تلك الدعاوى[15].

ويختلف الحجاج عند أزفالد ديكرو O.Ducrot، اختلافًا تامًا عن ما كان عليه عند بيرلمان، فالحجاج ينطلق عنده من الفكرة الشائعة التي مؤادها: (إننا نتكلم عامة بقصد التأثير)، أي أنه يقوم أساسًا على اللغة بل يكمن فيها. حيث يهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوافر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية[16].

---

13 العبد؛ محمد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010، ص5

14 الطلبة؛ محمد سالم الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2008، ص107

15 العبد؛ محمد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص6

16 العزاوي؛ أبو بكر، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010، ص57

معنى ذلك أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، فالحجاج باللغة يجعل الأقوال تتابع وتترابط على نحو دقيق فتكون بعضها حججا تدعم وتثبت بعضها الآخر[17]، أي المتكلم قد يصرّح بالنتيجة وقد يخفيها فيكون على المتلقي استنتاجها لا من مضمون هذه الأقوال الإخبارية بل اعتمادًا على بنيتها اللغوية.

ويفرق ديكرو بين معنيين للفظ الحجاج: المعنى العادي والمعنى الفنّي أو الاصطلاحي، والحجاج موضوع النظر في التداولية المدمجة هو بالمعنى الثاني. والحجاج بمعناه العادي هو طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع، فيكون الخطاب بذلك ناجعًا فعالًا، وهذا معيار أول لتحقق السمة الحجاجية، غير أنه ليس معيارًا كافيًا، إذ يجب أن لا تهمل طبيعة السامع أو (المتقبل) المستهدف. فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسامع، ومدى قدرة التقنيات الحجاجية على إقناعه، فضلا عن استثمار الناحية النفسية في المتقبل من أجل تحقيق التأثير.

أما الحجاج بالمعنى الفني فيدل على صنف مخصوص في العلاقات المودعة في الخطاب والدرجة في اللسان، ضمن المحتويات الدلالية. والخاصية الأساسية للعلاقة الحجاجية أن تكون درجية (scalaire) أو قابلة للقياس بالدرجات، أي تكون واصلة بين سلالم[18].

تلك بعض النماذج من تعريفات الحجاج، التي تصب خلاصتها في القول بأن الحجاج هو حاصل نصّيٌ عن تأليف بين مكونات مختلفة، وينبني على قضية خلافية، تستدعي عرض الدعوى المدعومة بالأدلة والبراهين من قبل المتكلم، عبر سلسة من العبارات المترابطة ترابطًا منطقيًا، بقصد إقناع المتلقي للدعوى والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية[19].

ويمكننا القول بأن الحجاج هو المهارة الفردية أو الجماعية في البرهنة على مدى صلاحية الأطروحة المتبناه، ومحاولة استمالة المتلقي بطرق تأثيرية تهدف إلى إقناعه.

---

17 الدريدي؛ سامية، الحجاج في الشّعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، جدار للكتاب العالمي، عمان، 2008، ص23

18 حباشة؛ صابر، التداولية والحجاج، ط1، صفحات، دمشق، 2008، ص21

19 ينظر: العبد؛ محمد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص7

أي أن مفهوم (الحجاج) يحمل في طياته اعترافا ضمنيا بضرورة استمالة المتلقي، على أن تتم عملية الإقناع على مستوى التأثير في الاعتقاد والسلوك لا على مستوى العنف والإكراه، بحيث يتخذ المحاج من الاستدلالات مادة خام قابلة للصياغة والتشكيل ليعكسها من منظورات متعددة، قد تكون عن طريق التحليل والاستدلال بقصد تقديم المبررات المقبولة، أو عن طريق الاتصال الذي يُستخدم فيه المنطق، وذلك بحسب رؤية المحاجج الخاصة، لكي يتحقق التأثير الذي يقصده بيرلمان من أجل استمالة العقول.

الحجاج في البلاغة القديمة:

لا يخفى على الدارس لمفهوم الحجاج، أن نظرية الحجاج قد مرت بأربع فترات مهمة، هي فترة التأسيس[20]، وفترة النضوج[21]، وفترة الانحطاط[22]، وفترة التجديد[23]. وتركز هذه الدراسة على فترة نضوج البلاغة الحجاجية عند أرسطو؛ وذلك لأن أغلب النظريات الحجاجية الحديثة قامت على بعث وتجديد نظرية أرسطو الحجاجية.

1. البلاغة الأرسطية:

يمثل الحجاج مجالا من النشاط اللغوي الذي شدَّ إليه الأنظار على مر الأيام منذ بلاغة القدامى الذين جعلوا منه الأساس ذاته للعلاقات الاجتماعية (فن الإقناع) حتى عصرنا هذا.

---

20 امتدت فترة التأسيس من منتصف القرن الرابع وحتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، أي أنها تمتد قرنا من الزمان. وهي مرحلة الكتابات الأولى في البلاغة وتعليم الكتّاب الين كانوا يعدون المرافعات عن المتهمين وللشاكين.

21 وهي أوج فترة أرسطو، حيث كانت البلاغة الأرسطية المرشد لثقافة الحجاج، التي انتشرت في إطار الجمهورية وبداية الإمبراطورية، والتي شهدت كبار الخطباء مثل: شيشرونciceron، وكنتيليانQuintilien، وهم ينسقون وينظمون ويعممون معايير الخطاب الإقناعي.

22 وهي مرحلة تدهور نظرية الحجاج في داخل البلاغة، وتمتد من نهاية الإمبراطورية الرومانية حتى منتصف القرن العشرين، وفيها تحولت البلاغة إلى مجرد نظرية في المحسنات والصور الأسلوبية، أما جزء الحجاج منها ففقد مكانه تدريجيا في ظل التصاعد القوي للبرهان في العلوم البحتة والتجريبية، وبعض فلسفة الوضوح evidence.

23 وهي مرحلة انبعاث "البلاغة الجديدة"، خاصة مع كتابات بيرلمان وتولمان حول الحجاج في النطاق الأنجلو- سكسوني.

تُعد بلاغة الفيلسوف أساسًا فلسفيًا معرفيًا لأغلبية النظريات البلاغية واللغوية التي جاءت بعدها بصفة عامة، ولنظرية الحجاج بصفة خاصة. باعتبارها أنها قد دخلت في نقاش جدلي قوي مع كل من البلاغتين الأفلاطونية والسفسطائية، واحتفظت منهما ببعض المكونات البنائية[24].

وقد ارتبطت البلاغة عند أرسطو بالخطابة، في كتابه (الخطابة)، التي يُعرفها بقوله:" فالريطورية (الخطابة) قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"[25]، ويفهم من ذلك أن غاية الخطابة هو الإقناع الممكن في كل شيء.

ركز أرسطو في كتابه (الخطابة) على الجدل، وعلى علاقته (بالريطورية) التي ترجمها ابن رشد إلى مصطلح (الخطابة) كما جاء في مقدمة التلخيص:" إن صناعة الخطابة تناسب صناعة الجدل، وذلك أن كلتيهما تؤمان غاية واحدة وهي مخاطبة الغير."[26].

ويجعل أرسطو من الخطابة صناعة، مدارها إنتاج قول تبني به الإقناع في مجال المحتمل والمسائل الخلافية القابلة للنقاش " بمعنى أنها علاقة بين طرفين تتأسس على اللغة والخطاب، يحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف المقابل جنسا من التأثير يوجه به فعله أو يثبت لديه اعتقادا أو يمليه عنه أو يصنعه له صنعًا "[27]

ولما كانت الخطابة صناعة تهدف إلى التأثير في المتلقي، لحمله على فعل شيء أو تركه أو الإقتناع برأي أو إبطاله،كان لزامًا أن تتوفر فيها جملة من الاعتبارات المحيطة بالعملية التخاطبية، منها ما يرجع إلى المتكلم، ومنها ما يرجع إلى المتلقي، ومنها ما يرجع إلى بنية الخطاب في حد ذاته.

أما ما يرجع إلى المتكلم فيجمعها أرسطو تحت مصطلح (Ethos)، والمقصود به الصفات الذاتية للمتكلم، والتي تجعل لخطابه الحظ الأوفر من الإقناع والتأثير، كالصدق والنزاهة والعدل والبعد عن المراوغة والخداع. أما ما يرجع إلى المتلقي فيجمعه تحت مصطلح (Pathos)، ويُقصد به توجه المتكلم إلى إثارة الجانب الشعوري عند المتلقي، أي تحريك انفعالاته وعواطفه، وغالبًا ما يستغل المتكلم هذا الجانب،

---

24 الطلبة؛ محمد سالم، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2008، ص23

25 أرسطو، الخطابة، ص9

26 ابن رشد، تلخيص الخطابة، ت: بدوي، دار القلم، (د.ت)، ص3

27صمود؛ حمادي، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، تونس، ص12

القابل للتحريك والإثارة والانفعال، فيخرج في حديثه عن وجهته الفكرية والاستدلالية. أما ما يرجع إلى بنية لغة الخطاب في حد ذاتها، والتي يجمعها مصطلح (Logos)، وهو ما يبنيه الخطاب من وجوه الاستدلال المتحقق بالاستقراء والقياس، والتي يهدف من خلالها المتكلم إلى خلخلة المنظومة الفكرية للمتلقي وإرباكها، من أجل حمله على الإقتناع[28].

وعلى هذا الأساس يقسم حمادي صمود الخطابة الأساسية المتعلقة بالخطاب إلى ثلاثة أقسام هي:

2. البصر بالحجة:

وهو اصطلاح متعارف عليه في العربية، حيث ورد عند الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)[29]، أما في مصطلح أرسطو فهو (Eurisis) وفي الاصطلاح اللاتيني (Inventio)، وهي بمعنى الظفر بالشيء والوقوع عليه، أو حسن التدبير والتقاط المناسبة بين الحجة وسياق الاحتجاج في صورتها المثلى حين يسد المتكلم السبيل فلا يجد منفذًا إلى استضعاف الحجة والخروج عن دائرة فعلها.

3. ترتيب الأقسام (Disposito "Taxis"):

ويقصد به ترتيب أقسام الكلام بين ما يكون للاستمالة وتهيئة الأسماع، وبين ما يكون للاستدلال والبرهان، وبين ما يكون نتيجة الخطاب وهدفه وغايته التي يتوخاها. فإن أجزاء الخطاب، لكي تعطي مفعولها، يجب أن تنتظم في سياق معين. هذا السياق هو الذي يمنحها القوة المنطقية والحيوية الاستدلالية.

4. العبارة (Flocutio "Lexis"):

وهي أخر مرة من مراحل العملية التخاطبية، حيث يتم فيها إخراج ما كان في حكم الإمكان إلى ما يكون في حكم الواقع، وبعبارة أخرى تعمل الصياغة اللفظية إلى إخراج ما كان يعتمل في نفس الخطيب إلى وجود مادي على هيئة بنية لفظية قابلة للفهم.

---

28 صمود؛ حمادي، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ص12-13

29 الجاحظ؛ البيان والتبيين، ج1، ص88

وترتبط البلاغة عند أرسطو ارتباطا وثيقا بالخطابة، فالبلاغة عند أرسطو هي " فن الكلام بطريقة تتوخى الإقناع"[30]، وهذا التعريف يكشف عن الهدف الحجاجي للبلاغة الأرسطية

لكن هذه البلاغة أُختزلت فيما بعد في الزخارف اللفظية والأسلوبية (الصياغة)، فغدت تلك الزخارف ووظيفتها الجمالية وتأثيرها الانفعالي هي مناط البحث والدرس، إلى أن جاءت نظرية البلاغة الجديدة عند بيرلمان لتتناول الحجاج بوصفه خطابة تهدف إلى الإقناع[31].

5. البلاغة العربية القديمة:

نشأت البلاغة العربية القديمة نشأة ذوقية في أحضان الشعر العربي، الذي يكمن وقعه في إيقاعه، وفضله في هيئة القول فيه، لا في قدرته على قول الحقيقة والمقارعة بالحجة، وبذلك اختلفت – البلاغة العربية – اختلافا كبيرا عن البلاغة الأرسطية، ذات النشأة الفلسفية التي حاولت تصنيف الأقاويل بحسب قدرتها على قول الحقيقة وإنتاج المعنى الفرد الذي لا يمكن أن يقوم ما يناقضه والقضايا التي تترتب فيها النتائج عن المقدّمات بصفة محكمة.

ولعل تلك النشأة كانت السبب في اهتمام النقاد والبلاغيين العرب، بشكل وهيئة الفن الشعري أثناء دراستهم له، وبما يتفوَّق به شاعر على شاعر آخر، من خلال تصويره للمعاني وإخراجها رائقة عذبة تسرّ الناظر وتخلب لبّ المستمع[32].

ولما نزل القرآن الكريم كان ذا أثر حاسم في البلاغة، وفي إثراء مادتها وتبلور مفاهيمها ومصطلحاتها، فبدأت كفرع من فروع الدراسات اللغوية القرآنية التي تهدف إلى إثبات إعجاز القرآن الكريم؛ لذلك تضافرت جهود هؤلاء البلاغيين والنقاد، من أجل دراسة أوجه هذا الإعجاز، فاتجهوا إلى دراسة أساليب

30 ليونيل بلنجر، مقال بعنوان: الآليات الحجاجية للتواصل، ت:عبد الرفيق بوركي، ضمن كتاب. الحجاج، مفهومه ومجالاته، ج5، ص93

31 عبد المجيد؛ جميل، مدخل إلى بلاغية وحجاجية الخطاب القضائي، ضمن كتاب. الحجاج، مفهومه ومجالاته، ج4، ص107

32 يُنظر: حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب(أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، ص18

القول فيه، وركزوا على وجوه البيان بوصفها سرًا من أسرار جمال الخطاب، لا بوصفها وسائل إقناع وتأثير في المتلقي.

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم يملك أهم المعطيات التي تجعل منه خطابٍ حجاجيٍ؛ فهو ينطوي على جملة من المبادئ الحجاجية الظاهرة أو الضمنية، التي عُبرَّ عنها بأشكال من العبارات والأساليب التي تروم الحوار وتهدف إلى الإقناع بالبراهين والأدلة العقلية والكونية والفطرية؛ والتي جمعت كلها في (الحجة البالغة)، كما أن لغته تحمل الكثير من الروابط الحجاجية في مفرداتها وتراكيبها، والتي تمنح نظرية الحِجاج فيه منهجًا رقيقًا خاليًا من العنف والإكراه.

إلا أن عناية هؤلاء البلاغيين في دراستهم لإعجاز القرآن، بقيت منصبة على العبارة الفنية، أي الشكل والهيئة وتصاريف الكلام، " ولم يدر بخلدهم أن يأتي إعجاز القول أيضًا من الحجج التي يبينها، والسياسة التي ينتهجها في ترتيبها لتتضافر مع الشكل والهيأة فيبلغ النص من سامعه قصده، إن قدّرنا أنّ الجلود لا تقشعر بخصائص بنيته اللغوية فحسب، وإنّما تقشعر أيضًا من إحكام بنية الحجّة، والقدرة الفائقة على الإقناع"[33].

وليس معنى ذلك أن النقاد والبلاغيين القدامى،لم يفطنوا أثناء دراستهم للقرآن الكريم إلى طابعه الحجاجي، وإلى الأساليب الحجاجية التي استخدمها في معالجته للقضايا التي يطرحها، بل إنهم وقفوا على الألفاظ الحجاجية، وأشاروا لها في مؤلفاتهم.

فهذا السيوطي مثلا يقول:" وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد، تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به" ويقول أيضًا:" فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة؛ ليفهم العامة ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائهما ما يُربي على ما أدركه فهم الخطباء"[34].

بل إن المتأمل في مفهوم البلاغة عند البلاغيين القدامى، وما انطوت عليه بعض تعريفاتها من إشارات إلى الجانب الحجاجي، يقطع في غير شك أنَّ الغاية الرئيسية للبلاغة العربية، هي الحجاج الذي يعني الإقناع

33 صمود؛ حمادي، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ص20

34 السيوطي؛ جلال الدين، معترك الأقران، ط1، م1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، ص346

والتأثير في المتلقي. فالكلام عند الجاحظ (255) لا يستحق اسم البلاغة إلا إذا سابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك[35]. أما الرماني (386) فيرى أن البلاغة هي توصيل المعنى في أحسن صورة من اللفظ[36]. ويقول العسكري (395): أن البلاغة هي كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن[37]. أما عبد القاهر الجرجاني (474) فيعد البلاغة خصوصية في كيفية النظم وطريقة مخصوصة في نسق الكلام بعضها على بعض[38]. ويرى السكاكي (626) أن البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها وإيراد التشبيه والكناية على وجهها[39]. وبلاغة الكلام عند القزويني (739)هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته[40].

والمتتبع لهذه التعريفات يلاحظ أن المفهوم البلاغي ذو صبغة حجاجية، فتلك التعريفات تدور حول أربعة معانٍ هي: البيان والإيضاح التوصيل والإقناع، أي أن البلاغة العربية تركز على جانبين أثنين، جانب التواصل والإبلاغ، وجانب الفن والإمتاع.

ويلاحظ أيضًا أن مفهوم البلاغة قبل عبد القاهر الجرجاني كان قائمًا على إبراز الغاية من البلاغة، وهي توصيل الكلام إلى قلب المخاطب والتأثير فيه[41]. أمّا مفهومها بعد عبد القاهر فقد اصطبغ بصبغة علمية ركزّت على خصائص هذا الكلام الذي يقنع ويؤثر في الآخرين، وأصبح مفهوم البلاغة معنيًا بخواص التركيب، والمقام الذي يؤدي فيه ما يُعرف بمبدأ مراعاة مقتضى الحال عند المتلقي، وهذا المبدأ من أهم

35 الجاحظ؛أبو عثمان عمرو بن بحر(255هـ)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، (د.ت)، ص88

36 الرماني؛ علي بن عيسى(386هـ)، النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط3، دار المعارف القاهرة، 1968م.

37 العسكري؛ الحسن بن عبد الله بن سعيد(395هـ)، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة، 1952م. نسخة الكترونية.

38 الجرجاني؛عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م.

39 السكاكي؛ مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، ص416

40 القزويني؛ الإيضاح في علم البلاغة، ط1، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1989.

41 صمود؛حمادي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، ط1، 1994، ص110-113

الظواهر المتصلة بالبعد الحجاجي للبلاغة العربية. فالجاحظ مثلًا في مُراعاته لمقتضى الحال، يجعل الكلام في تناسب مع الغرض الذي يستهدف المتلقي فيرى بأنه " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يُقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[42].

كما أننا نجد إشارات متناثرة للأسلوب الحجاجي، في العديد من دراسات وكتب، المؤسسين الأوائل للبلاغة العربية، حيث أشاروا على الطبيعة الحجاجية للسان بصفة عامة، وإلى شروط نجاح العملية الخطابية، ومن ذلك " كتابات الجاحظ في (البيان والتبيين)، و(الحيوان)، فقد تحدث عن الخطبة وسياقها، وتوسع في دور كل طرف من أطراف العملية التخاطبية (المتكلم/ السامع)، وما يكون به النص بليغًا مؤثرًا مقنعًا.

وفي حديثه هذا ما يدل دلالة واضحة على فهمه لآليات إنشائها والفضاءات التي تقع فيها والوظائف التي تؤديها. فالقول الخُطبي عنده يكون للخصومة، والمنازعة، ومناضلة الخصوم، والاحتجاج على أرباب النحل، ومقارعة الأبطال، والخطيب مطلوب منه الإفصاح بالحجة، والبصر بها، والمعرفة بمواضع الفرصة... ولا يستثنى من ذلك عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، فعلى الرغم من قوة عارضته الكلامية، ولهجة المحاجة والجدل، الملازمة لأصل مشروعه البلاغي، إلا أن الفكرة التي كانت مهيمنة على كتابه، والخيط الرفيع الذي كان يجمع أشتاتها هو فكرة النظم، التي ترتكز على أن بلاغة الكلام الأساسية، إنما تأتي من الهيئة لا من بناه الحجاجية"[43].

والمتأمل أيضًا في كتب هؤلاء البلاغيين ومؤلفاتهم، يقف على الكثير من المصطلحات الحجاجية، التي تؤكد على البعد الحجاجي في البلاغة العربية، وهي مصطلحات يغلب عليها طابع البرهان والحجاج والإقناع، مثل الاستدلال في كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، وباب الاستدراج في (كتاب المثل السائر) لابن الأثير، وباب الاستشهاد والاحتجاج في كتاب (الصناعتين) لأبي هلال العسكري، وباب القياس والتمثيل في كتاب(البرهان في وجوه البيان) لابن وهب، وكتاب (المنهاج في ترتيب الحجاج) للباجي،

42 الجاحظ؛ البيان والتبيين، ج1، ص92

43 صمود؛ حمادي، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ص21-22-23

وكتاب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لحازم القرطاجني، وكتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لأبن حزم الأندلسي، وغيرها الكثير.

ويمكن القول أنه على الرغم من إدراك البلاغيين الأوائل لأهمية استمالة القلوب بالقول الفصيح بهدف الإقناع، إلا أن اهتمامهم بالحجاج الإقناعي، أو بما هو وسيلة إقناع، لم يكن بذات الصورة التي كانت عند اليونان. كما أن البلاغيين الذين جاؤوا بعد الجاحظ،لم يعطوا قضية الحجاج حقها من الدرس والتحليل، وانشغلوا عنها بالتفكير في العبارة وما يتبعها من تقليبات ووجوه، حتى غدت البلاغة بلاغة عبارة لا بلاغة نصّ، وبلاغة جمل لا بلاغة خطاب[44].

وأمّا تلميحاتهم بمسائل الحجاج، التي جاءت متفرقة في كتبهم، فهي لا تفي بالغرض المنشود، ولا تحقق شيئًا ممّا تطمح إليه البلاغة اليوم من الاهتمام بمسائل الحجاج بوصفها بلاغة في حد ذاتها.

فقد كان بمقدورهم تأسيس نظرية حجاجية عربية، وذلك من خلال جمع قضايا الحجاج، التي جاءت متفرقة في أبواب كتبهم، وتحليلها، وبيان كيفية اشتغال الحجاج في الخطاب؛ لكنهم أهملوا ذلك، واكتفوا فقط بالإشارة إليه.

ويرجع أحد الباحثين هذا الإهمال إلى عدة أسباب من أهمها – حسب وجهة نظره – ما يلي[45]:

1- إن الغاية من الحجاج عند أوائل اليونانيين، هي تحقيق النجاحات والمكاسب الآنية والشخصية، والتي تتنافى مع المبادئ الإسلامية.

2- التركيز على الجانب البرهاني والجدلي لا الجانب البياني والأدبي، في دراسة قضايا الحجاج عند المتكلمون والمناطقة.

3- سعي الدراسات البلاغية إلى بيان إعجاز القرآن، وكشف أسراره، وابتعادها عن الحجاج لخطورة الوسائل التي يقوم عليها كالجدل والقياس، والتي قد تؤدي إلى نتائج غير مرضية.

4- انكماش القول والسعي إلى الحجة في الثقافة الإسلامية، والدخول في شروط الرأي الواحد، والرضى بحد السيف لأنه الحق والاستقامة. فأصبحت البلاغة بذلك صنعة للزينة والتباهي.

---

44 صمود؛ حمادي، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ص20

45 سلمان؛ علي محمد، الحجاج عند البلاغيين العرب، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، إشراف:حافظ إسماعيلي علوي، ص256

5- عرض مباحث الحجاج تحت مسميات مختلفة، وبصورة مقتضبة، لانحصاره في نظرية البيان الحاضنة لكل قضايا الفهم والإفهام. لا بوصفه نظرية مستقلة.

6- صعوبة تقنين الحجاج وتجزيئه وتفريعه، فهو يكاد يكون قضية واحدة، يُشار إليها في أحد المباحث تحت عنوان يحمل معناه.

ونستنتج بعد كل ذلك أن مفهوم الحجاج متأصل في التراث القديم، وأن الفكرة التي مؤادها (إنَّنا نتكلَّم عامَّةً بقصدِ التأثير) ليست بالفكرة الجديدة بل هي قديمة قدم البشرية، إلا أن بلاغة الحجاج هي البعد المفقود في البلاغة العربية القديمة؛ وذلك بسبب اهتمامها بالأسلوب "العبارة" دون الحجج، فحكمت على نفسها بالموت، إذ اقتصرت على بحث الصور والزخارف، بعد أن كانت نظرية في عملية الإقناع، تعتمد على الكلام، فهي بهذه الصفة "الإقناع"، تأمُّل في اللغة والفكر، وهو ما يجعلها متعلقة بكل لغة[46].

الحجاج في البلاغة الجديدة:

عاد الاهتمام بالحجاج مع كتابات الفيلسوف البلجيكي بيرلمان Perelman، الذي نشر مع أولبريش تيتيكا olbrechts-tyteca، في عام 1958م الكتاب الذي ترك أكبر الأثر في دراسات الحجاج إلى اليوم، وهو كتاب: "رسالة في الحجاج: البلاغة الجديدة (Traite de largumentation، la nouvelle (rhetorique)، كما لا يمكن تجاهل الدور الذي قام به تولمان Toulmin أيضا من خلال نشره، في العام ذاته، لكتابه المعروف: "استخدامات الحجاج (Les usages de l`argumentation)"[47].

وأصبح الحجاج موضوعا للعديد من الدراسات والبحوث، التي نمت وانتشرت في البيئة الغربية، والتي استخدمت الخطاب في حل قضاياها، مهما تعددت وتعقدت، بعيدا عن منطق القوة؛ لذلك نلاحظ الحضور الطاغي للحجاج في أغلب أنواع الخطاب (السياسي والديني والإعلاني وحتى الاقتصادي والعلمي).

46 الكواز؛ محمد كريم، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، ط1، الانتشار العربي، بيروت، 2006، ص23

47 بروتون؛ فيليب وجيل جوتية، تاريخ نظريات الحجاج، ت: محمد صالح الغامدي، ط1، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، جدة، 1432، ص9

لذلك تهدف الدراسة إلى استعراض النظريات الحجاجية، التي تركز على مفهوم الحجاج البلاغي، عند أهم منظري البلاغة الجديدة[48] مثل بيرلمان وماييرورولان بارت.

- **بيرلمان** Perelman **وتيتيكا** tyteka :

يُعد كتاب بيرلمان وتيتيكاهTraite de l`argumentation: La nouvelle ، من أهم الكتب المصنّفة في الحجاج، حيث طابقا فيه بين البلاغة والحجاج، "فالبلاغة لم تعد لباسًا خارجيًا للحجاج، بل إنها لتنتمي إلى بنيته الخاصة"[49].

والحجاج عند بيرلمان وتيتيكاه[50] هو La nouvelle rhetorique، ويعرفانه بقولهما:" موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات تذعن لما يطرح أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[51].

أما الغاية من الحجاج فهي الإقناع La persuasion أو الاستدلال La demonstration، والهدف الذي يرومانه هو الإقناع Coviction، الذي يقع في المنطقة الوسط بين الاستدلال والإقناع[52].

ومن أهم الأفكار في النظرية الحجاجية عند بيرلمان ما يلي:

- يعتبر الإقناع الوظيفة الأساسية للبلاغة وليس التأثير.

---

48 تستبعد الدراسة نظرية الحجاج عند ديكرو وانسكومبر، على الرغم من أنها إحدى النظريات الأساسية التي أعادت الاهتمام بالحجاج من منظور لغوي صرف، إلا أنها تقدم المفهوم الحجاجي في سياق معارض للحجاج البلاغي.

49 العمري؛ محمد، **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**، ص216

50 ارتبط مصطلح (الحجاج) بالبلاغة الجديدة عام 1958، على يد بيرلمان وتيتيكا، في مؤلفهما الضخم : Traite de l`argumentation La nouvelle، وقد ترجم عبدالله صولة الحجاج عندهما بالخطابة الجديدة، في مقاله(الحجاج وأطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة)، كما ترجمه صلاح فضل بالبلاغة الجديدة في كتابه: **بلاغة الخطاب وعلم النص**.

51 صولة؛ عبدالله، **الحجاج:أطره ومنطلقاته وتقنياته** من خلال "مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة، ص299

52 صولة؛ عبدالله، **الحجاج:أطره ومنطلقاته وتقنياته**، ص300

- الصورة البلاغية ليست صورة فنية وجمالية وتزيينية، بل هي ذات طابع حجاجي وإقناعي، بل قد تصبح من التقنيات الحجاجية التي تستخدم في الخطاب الحجاجي لإقناع الغير أو لاستجلاب موافقته ورضاه.
- يعد الحجاج عملية تفاعلية تقوم على مجموعة من العناصر وهي: (المرسل، الرسالة، السامع). ويعد الغير السامع أهم من المتكلم الخطيب؛ لأن الهدف من الرسالة التوصيلية هو إقناع الآخر ومحاججته برهانيا وعقلانيا عبر مجموعة من المسارات الحجاجية للوصول إلى الحقيقة والحل الراجح، واستكشاف ردود فعل المخاطب تجاه الحجاج.
- وجوب مراعاة المقام أو مقتضى الحال في الحجاج، لأن لكل مقام مقالا، كما يجب تكييف الخطاب مع مقامات المخاطبين، والإحاطة بمجموع المعارف الخاصة بموضوع المحاجة المتعاقد عليها ضمنيا أو ما يسمى بقاعدة الحجج المشتركة التي تجمع الخطيب

وترتكز نظريتهما الحجاجية على العقل (إذعان العقول)، والكلام (تقنيات الخطاب)، وهذا يعني أنَّ الحجاج عند بيرلمان يعتمد حجة اللوغوسLogos ، بالمعنى المزدوج الذي لكلمة Logos في اليونانية[53].

كما تقوم نظريتهما على مبدأ الاحترام بين الخطيب وجمهوره (دون تحديد نوع الجمهور) وضرورة اعترافه بآراء ومنظومة أفكار هذا الجمهور، وإن كان لا بد من تغييرها فعن طريق مخاطبتها على درجة رفيعة من الرقي الفكري والابتعاد عن العنف الفكري والخداع والتلاعب بالمشاعر.

ويمكن القول بأن الحجاج عندهما يتميز بخمسة ملامح رئيسة هي[54]:

1- أن يتوجه إلى مستمع.

2- أن يعبر عنه بلغة طبيعية.

3- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.

4- أن لا يفتقر تقدمه إلى ضرورة منطقيته بمعنى الكلمة.

---

53 صولة؛عبد الله، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة(أو الحجاج)، ضمن كتاب: **الحجاج مفهومه ومجالاته**، ج1، مجموعة من المؤلفين، تحت إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، ص33

54 الأمين؛ محمد سالم ولد محمد، **مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة**، عالم الفكر، ع2، 2000، ص61

5- ليست نتائجه ملزمة.

وبذلك استطاع الباحثان تخليص الحجاج من تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف بالجمهور وبعقله أيضًا، ودفعه إلى القبول باعتباطية الأحكام لا بمعقوليتها. وتخليصه أيضا من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب. فالحجاج عندهما هو معقولية وحرية. وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة، والتسليم بالرأي الآخر بعيدًا عن الاعتباطية واللامعقول اللذين يطبعان الجدل[55].

أما ما يختص بتقنيات العرض الحجاجية في الخطاب، فإن بيرلمان لم يفصل بين الشكل والمضمون، بل إنه يرى هو وزميله أنه لا يمكن دراسة البنى الأسلوبية منفصلة عن أهدافها الحجاجية فحتى ما ينشأ في الخطاب من تناغم وإيقاع وغير ذلك من الظواهر الشكليّة المحضة يمكن أن يكون له تأثير حجاجي من خلال ما يتولّد عنه من إعجاب ومرح وانبساط وحماس لدى جمهور السامعين[56].

ولعل من أهم التقنيات المتعلقة بالشكل ما يلي:

1- الإحضار أو التشخيص: أي استحضار العنصر المنتقى للمحاجة وجعله ماثلا بين أعين المخاطبين وفي أذهانهم. وهذه الوسيلة، أي وسيلة الإحضار، عامل جوهري في الحجاج لطالما أهمله المنظور العقلان في الاستدلال. ويستمد الإحضار أو الحضور أهميته الحجاجية من كونه يؤثر في وجداننا تأثيرا مباشرا[57].

2- اختيار النعوت: تنهض الصفات بدور حجاجي يتمثل في كون الصفة التي نختارها تجلو وجهة نظرنا وموقنا من الموضوع. ويتضح ذلك حين نجد صفتين متناظرتين، لكنهما متعارضتان، قابلتين لأن تظهرا في الخطاب ويكون اختيار إحداهما كاشفا عن رؤيتنا الخاصة[58].

---

55 صولة؛ عبدالله، الحجاج:أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب **أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم**، إشراف حمادي صمود، ص298

56 صولة؛ عبدالله، الحجاج:أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب **أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم**، ص317

57 نفس المرجع، ص314

58 المرجع السابق، ص316

3- التكرار وتشديد بعض المقاطع: يُعد من طرق عرض الخطاب عرضا حجاجيا، اعتماد التكرار لإبراز شدة حضور الفكرة المقصود إيصالها والتأثير بها، وكذلك التشديد على بعض مقاطع الخطاب من خلال الصوت أو الصمت الذي يسبق أداءها[59].

4- الوجوه البلاغية: تُعد من الأشكال والصيغ اللغوية ذات المدى الحجاجي، الوجوه أو الصور البلاغية التي كثيرا ما نُظر إليها نظرة أدبية حصرتها في وظيفة التحسين والتزويق. إن ما يهم صاحبي "مصنف الحجاج" هو النظر إلى بعض الصور البلاغية باعتبارها مستخدمة في الخطاب لحاجات الحجاج، وأنها ذات قيمة حجاجية[60].

ويمكن القول بأن جهد بيرلمان وزميله انصبّ على توظيف الحجاج بوصفه آلية الإقناع الرئيسة، إلا أنه يقصر الحجاج على بعض التقنيات والآليات البلاغية والمنطقية، وهو ما يدفعه إلى تقسيم الخطابات إلى خطابات حجاجية ذات طبيعة إقناعية، كالمناظرات والمجادلات الدينية والفلسفية والسياسية والقانونية، وأخرى غير حجاجية[61].

كما أنه لا يعتد إلا بالحجج اللغوية، وأهمل في المقابل ما يكون لصورة المتكلم لدى السامع، وما يكون لانفعالات الجمهور وعواطفهم من دور في عمليتي الإقناع والتأثير.[62]

---

59 المصدر نفسه، ص318

60 المصدر نفسه، ص323

61 ينظر: جميل حمداوي، **نظريات الحجاج**، ص26، نسخة الكترونية.

62 عبيد؛ حاتم، مقال: الباتوس: من الخطابة إلى تحليل- من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ضمن كتاب: **الحجاج مفهومه ومجالاته**، ص63

ميشال ماير M.meyer [63]:

حددّ ماير البلاغة تحديدًا وظيفيًا أساسيًا، باعتبارها "مفاوضة المسافة القائمة بين الأشخاص حول مسألة أو مشكل، تلعب فيه المساءلة المتصلة ببنية الأقوال البلاغية دورا تحليليا داخل الحجاج، حيث تبرز أهدافه وغاياته الإقناعية"[64]. ولهذا التصور البلاغي الجديد أهمية تكمن في كونه يجعل منها أداة للتعبير عن رفض الواقع، وربط الحجاج بالبلاغة ربطًا تساؤليًا، وذلك على مستوى النطق حين يقترن الاحتجاج بسياق الجواب والابتداء.

فالحجاج عند ماير هو "دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيه"، بمعنى أن يوجد في معنى الجملة الحرفي شارة حجاجية (Marqueur argumentatif) تؤدي إلى ظهور الضمني في ضوء ما يمليه المقام، وتلوّح بنتيجة ما تكون مقنعة أو غير مقنعة[65].

وبما أن الحجاج يقوم عند ماير على قسمين: صريح وضمني، فإن القسم الذي يختص به في صياغته لمفهوم الحِجاج هو القسم المتعلق بربط الحِجاج بنظرية المساءلة.

فهو يعتبر الحجة عبارة عن جواب أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المتلقي ضمنيًا من ذلك الجواب، ويكون في ضوء المقام وبوحي منه. بمعنى أن السؤال عند ماير هو عبارة عن مشكلة تتطلب حلًا. وحلها يكمن في الإجابة عنها، إجابة يفهم منها ضمنيًا أن تلك المشكلة موجودة، بحيث

---

63 تُعد نظرية المساءلة التي شرع ماير في وضع لبناتها الأولى، في الفصل الأخير من كتابه (المنطق والكلام والحجاج)، إحدى النظريات المعاصرة التي قامت بمعالجة الخطاب بصفة عامة، والخطاب الذي يتم داخل عمليات التخاطب خاصة، سواءً كان تواصلا عاديا، أم حجاجا يهدف إلى الإقناع، وقد استطاع ماير اعتمادا على منطلقات معرفيّة ومرتكزات فلسفية أن يؤسس منهجا تساؤليا يقوم على مبدأين اثنين: المبدأ الافتراضي في تحليل الأقوال، أي الافتراض المؤسس على الجواب والسؤال انطلاقا من مجموعة المقومات التي تحكم العمليات التواصلية. ومبدأ الاختلاف الإشكالي، الذي يرتكز على طرح الاختلافات القائمة بين الأقوال ويهدف إلى تحقيق وظيفة القول تواصلا أو إقناعا، وهذه الاختلافات هي الميزة الحقيقية في العمليات التخاطبية، باعتبارها اختلافات تحكمها ضرورات ترتبط بالمعارف والخلفيات السيّاقية والثقافية التي يتوفر عليها الذهن البشري.

64 عشير؛عبد السلام، عندما نتواصل نتغير، ص203

65 صولة؛عبدالله، الحجاج في القرآن، ص37

لا يكون المتلقي في نهاية الأمر وهو يقرأ الحجج الصريحة أو الأجوبة في خطاب ما إلا طارح أسئلة يستنتجها ضمنيًا من خلال تلك الأجوبة المقدمة في النص، مستعينًا بالمعطيات التي يوفرها المقام[66].

ولتوضيح ذلك نسرد هذا المثال[67]:

((كل شيء قابل للتغيير لكن الوقت لم يحن بعد)).

فالجواب الأول (كل شيء قابل للتغيير)، يسير في اتجاه القبول والاتفاق.

والجواب الثاني (لكن الوقت لم يحن بعد)، يسير في اتجاه الرفض والاختلاف.

فالقول هنا عن طريق توظيف (لكن) هو عبارة عن سؤال خفي يحول المعنى الواضح والمعنى الخفي إلى سؤال إشكالي، يجعل المخاطب يقوم بتقدير الجواب الحقيقي أو المفترض في القول وهو على نقيض ما يطرحه المتكلم، إن استعمال الأداة (لكن) يدل على الشك أي أن تحقيق التغيير ليس إلا احتمالا دون أن يكون حقيقة، والجواب هو دليل ممكن ومحتمل لمعالجة قضية التغيير، عن طريق إثارة أسئلة أخرى وإجابات أخرى. وهكذا فإن السؤال في نظرية المساءلة عند مايير لا يكون إلا في شكل جملة؛ لأن الجملة تمثل أفضل إطار يجسد السؤال.

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الحجاج عند مايير هو عبارة عن إثارة الأسئلة، وإثارة تلك الأسئلة هي عنده الأساس الذي ينبني عليه الخطاب.

وأما العلاقات الحجاجية عند مايير فتتأسس على ثلاثة عناصر أساسية هي:

الإيتوس (الصفات المتعلقة بالمتكلم)، الباتوس (التأثير في الآخر)، واللوغوس (الخطاب أو اللغة أو العمليات الاستدلالية العقلانية داخل الخطاب). وهذه العناصر لا تخرج عن الطرح الذي قدمه بيرلمان انطلاقًا من التصور الأرسطي[68]، لكن مايير يقدم تصورًا وظيفيًا لهذه العناصر ويختزلها في عنصرين أساسين هما: " عنصر الإيتوس (الصفات المتعلقة بالمتكلم)، وعنصر العلاقات الثنائية التي تجمع بين المتكلم والمستمع والتي يحددها اللوغوس في الخطاب إذ يعتبر هذا التصور الجديد في الوظيفة الحجاجية تجاوزًا للفهم التقليدي (أرسطو وبيرلمان) الذي ينحصر في الوظيفة التي تدور حول الاستمالة والإقناع

66 صولة؛عبدالله، الحجاج في القرآن، ص38-39

67 عشير؛عبدالسلام، عندما نتواصل، ص207

68 القارصي؛محمد علي، (البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار)، ص398

تصوّر يرتكّز على العلاقة الثنائية (بين المتكلم والمستمع) باعتبارها مكونًا أساسيًا في العملية الحجاجية"[69]. وهو بذلك يعطي طرفي العملية الحجاجية الأهمية التي غابت عند أرسطو وبيرلمان.

ويعرف مايير القول الحجاجي بأنه " كلام العقل الذي يدرك نفسه في كل أبعاده دون أن يحدّه اتجاه مخصوص" وإذا كان الحجاج مرتبط بركنيه الأساسين، ركن العلاقة الثنائية، وركن اللغة، القائم على العلاقة الخطابية فإن الحجاج ليس إلا استغلال ما في الكلام من قوة وثراء[70].

وعلى ما يبدو أن مايير يركز اهتمامه في العملية الحجاجية على اللغة، وبنياتها المختلفة بما فيها من قدرة كبيرة على الإقناع.

الحجاج في البلاغة البنيوية:

- **رولان بارت R.Barthes[71]:**

ينظر بارت للبلاغة في كتابه (قراءة جديدة للبلاغة القديمة)، على أنها تقنية لإنتاج وتحقيق الممكن وغيره، لذا يسميها " الآلة البلاغية" التي تدخل فيها مواد قابلة للاستدلال، وتؤدي إلى إنتاج خطاب مكتمل يهدف إلى إقناع المخاطبين[72].

وتضم هذه التقنية البلاغية خمس عمليات أساسية هي[73]:

1- الابتكار:

وهو العثور على ما يمكن قوله، أي ابتكار الحجج اللازمة للموضوع، ويتفرع عنه طريقان أساسيان: الأول منطقي، والآخر نفسي: الإقناع والتحريك؛ فالإقناع الدفع إلى الثقة، يلتمس آلة منطقية أو شبة منطقية نسميها إجمالا التصديق (مجال الأدلة)؛ ويتعلق الأمر بفعل هزة بواسطة الاستدلال تتناسب مع ذهن المستمع، وحيث لا يدخل الطبع والترتيبات النفسية إذا في الاعتبار، فالأدلة لها قوتها الخاصة. أما

---

69 عشير؛عبدالسلام، عندما نتواصل، ص202

70 عشير؛عبدالسلام، عندما نتواصل، ص206

71 نستقرئ مفهوم الحجاج عند رولان بارت من كتابه: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، على الرغم من أنه لم يجعل الحجاج موضوعا قائما بنفسه، إلا أنه عّده آلية بلاغية رئيسية.

72 ينظر: رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص84

73 بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص85

التحريك (دفع الشعور) فيتركز على العكس؛ في التفكير في الرسالة المصدقة، ليس في ذاتها وإنما في وجهتها، ومزاج الذي يجب أن يتلقاها، كما ترتكز في تعبئة الأدلة الذاتية، الأخلاقية"[74].

2- الترتيب:

وهو تنظيم القول حسب مقتضيات المقام، أما الترتيب فيقصد به ترتيب الأجزاء الأساسية للخطاب، ويجب على المبدعين مراعاة جودة السبك والإحكام في بداية ونهاية كل خطاب، فالبداية لابد أن تكون محكمة مثيرة، تستميل عواطف المخاطبين، ثم ينتقل المتحدث إلى وحدات الموضوع الكبرى التي سيتناولها بالتفصيل. ويتم في الخاتمة إطلاق العنان للاستنتاجات، وإبراز القدرة اللغوية والبلاغية المؤججة للعواطف، والخاتمة يسبقها السرد الذي يعني في البلاغة الأرسطية (التقديم الحجاجي)، وبالتالي فهو يتضمن طبيعتين إلزاميتين[75]:

- عُرْيه: أي عدم مباشرته الحجاجية، ولكن عليه أن يكون شفافًا، محتملًا، موجزًا.
- وظيفته: أنه تهييء للمحاجة، وأحسن تهييء هو الذي يكون فيه المعنى مختفيًا".

3- الصياغة:

وهي الزخرفة الكلامية، أي سبك الألفاظ والكلمات، وإضفاء الصيغ البلاغية، بمعنى صياغة الحجج والبراهين التي تم توليدها، ومن ثم توزيعها على فقرات الخطاب ومناطق الحجاج اللازمة؛ كما يدخل في الصياغة كل الخصائص الأسلوبية المتعلقة أساسًا بالاختيارات اللفظية والصور البلاغية.

4- **الفعل (الإيماء)**: وهو عبارة عن حركات وإشارات تصدر من المتكلم. وهذا المستوى خاص بالخطابة.

5- **الذاكرة**: وهي تتعلق بحفظ الخطاب وتزيينه.

وهكذا نرى أن كل عنصر من العناصر الثلاثة الأولى، يختص بجانب من جوانب الاحتجاج.

---

74 بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص88

75 قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص134

الحجاج عند بول ريكور P.Ricoeur:

يتجلى الحجاج عند بول ريكور في كتابه (صراع التأويلات) 1969، بصورة ضمنية في المباحث التأويلية (الهرمينوطيقية). فالتأويل – بوصفه أهم مظهر فكري تتجلى فيه الطاقات الحجاجية عند ريكور – يعد عملية وجودية تحقق فيها الذات إنسانيتها من خلال (اللغة) ونصوصها، لأنها – أي النصوص- تقصد أهدافًا معيَّنة، والفعل القصدي يختلف عن غيره بكونه غير مكتمل، أي منفتحًا باستمرار على القراءات التي تمزج بين معطيات لحظتي الفهم والتفسير، وذلك لكي يتحدد الفعل القصدي مع مجرى الأشياء فيما يسمى بالتداخل المقصدي Intervention intentionnelle، والذي يُضاف إليه التداخل المرجعي Interference، مما يحطم الحدود بين نظام ذهني للفهم ونظام مادي (فيزيقي) للتفسير[76].

ولابد من تضافر هذين النظامين في كل عملية تأويلية جادة تهدف إلى ربط العلاقة بين الذات والمعنى. فالنص عالم مفتوح لن تعيه الذات إلا عندما تؤوِّل نفسها، وتأويلها لذاتها يعني استحضارها للنصوص الحجاجية Les texts argumentatifs التي ستقرأ بها النص الجديد، لأن هذا الأخير يهيىء دائمًا شروط بناءِ ذاتٍ مخالفة للذات القارئة[77]. وتبلغ العملية الحجاجية أوجها عندما ينجح القارئ فيتوقع ملامح ذات النص وروافدها.

وترتبط البلاغة بالحجاج عند ريكو من حيث وظيفتها الحجاجية، فهو يعرف البلاغة في كتابه (الاستعارة الحية)، بأنها دراسة الفهم وسوء الفهم الفعلي وكل ما من شأنه معالجة ذلك[78]، وهذا التعريف – بحسب رأي أحد الباحثين- مؤشر على وظيفتها الحجاجية. والسيطرة على قوانين اللغة إنما تكون لأجل توجيه الخطاب إلى منحى معيَّن وتسخير الطاقات البيانية (بالمعنيين العام والخاص) لذلك الغرض، فالبلاغة هي في أوسع معانيها "فن الحجاج".

---

76 نقلًا:عن محمد سالم محمد الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008، ص159

77 نقلًا:عن محمد سالم محمد الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص159

78 نفس المرجع، ص162

الحجاج في الدراسات العربية الحديثة:

إن الباحث في الدراسات العربية عن نظرية الحجاج، يحتاج إلى وقفة تأمل تضبط الحدود الزمانية لبداية الاهتمام بهذه النظرية، كما يحتاج إلى نظرة نقدية ترصد الممارسات الحجاجية على النصوص العربية المختلفة.

والحقيقة أنه كان هناك جهود عربية متفرقة في القرن المنصرم والقرن الحالي؛ جاءت متمثلة في صورة عدة كالكتب والدراسات والبحوث الأكاديمية، وبعض المقالات المتفرقة في المحاضرات والندوات[79]. ولعل من بين الدراسات الأولى التي تطرقت للحجاج كتاب "بلاغة الخطاب الإقناعي" (1985) لمحمد العمري، وكتاب " اللسان والميزان أو التكوثر العقلي".

الحجاج عند محمد العُمري:

يتخذ الحجاج مسمى (الخطاب الإقناعي) عند محمد العمري، في كتابه (في بلاغة الخطاب الإقناعي)، الذي حاول فيه تأطير اجتهادات البلاغيين العرب بالإطار العام للنظرية الأرسطية، وإغناء ذلك باجتهادات وإضافات البلاغيين ودارسي الخطاب الإقناعي من غير العرب في القديم والحديث.

والمتصفح لهذا الكتاب يجد أن الباحث، يركز فيه على عنصرين من عناصر الإقناع في البلاغة العربية القديمة وهما:

- عنصر المقام الخطابي.
- عنصر الصور الحجاجية (القياس، المثل، الشاهد)، بالإضافة إلى عنصر الأسلوب.

79 ينظر:عبد الهادي ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص450

ويحدد الباحث الأسس المقامية لتصنيف الخطاب عند الدارسين العرب انطلاقًا من تصنيفها حسب موضوعاتها إلى ثلاثة أقسام وهي[80]:

1- مقامات الخطابة الدينية:

يقسمها إلى ثلاثة أصناف حسب المتلقي وحسب الرسالة الموجهة إليه. فهو إما يكون خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة إليه وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية، وإما أن يكون متناسيًا لما تعلم غافلًا عما ينتظره فيتطلب حاله الحث على العمل والتخويف من العقاب وتلك هي الخطابة الوعظية. وإما أن يكون عالما مخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب وفي هذه الحالة لابد من المحاجة، والبرهنة وتلك الخطابة الحجاجية أو المناظرات.

2- مقامات الخطابة السياسية:

يندرج فيها جميع الخطب المتعلقة بالعمل في سبيل الدولة أو بسط نفوذها، أي حينما تكون المواجهة بين المسلم وغير المسلم. كما يندرج فيها خطب الصراع حول الخلافة والحكم داخل المجتمع الإسلامي.

ويصنف الباحث الخطابة السياسية حسب العلاقة بين المتحاورين إلى صنفين كبيرين يضمان تصنيفات فرعية:

- الحوار بين الأنداد.
- الحوار بين الراعي والرعية.

3- مقامات الخطابة الاجتماعية:

تندرج فيها خطب في موضوعات اجتماعية تتناول العلاقة بين الناس وتنظيم المجتمع مثل خطب الأملاك، والصلح، والمخاصمات وغيرها. كما تندرج فيها الخطب ذات الطبيعة الوجدانية التي تهدف إلى المشاركة في الأفراح والأحزان.

80 العمري؛ محمد، بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء. 2002، ص40

ويجعل الباحث الحجاج في ثلاث صور هي[81]:

1- القياس الخطابي: وهو القياس المضمر الذي يقوم على الاحتمالات التي تكفي في معالجة الأمور، ومنه القياس العام الذي يقوم على مبادئ العقل نفسه، ويطبق في جميع المواد، والخاص الذي يستخلص من المفاهيم الخاصة، ويطبق فيها. ومن نماذج القياس الخطابي التعارض والتضاد، والمستقصي.

2- المثل: وهو استقراء بلاغي. وحجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية احديهما بالنظر إلى نهاية مماثلة.

3- الشاهد: وهو من الحجج الجاهزة أو غير الصناعية كما يسميها "أرسطو"، ويدخل في الشاهد كل من الأمثال والأبيات الشعرية والآيات القرآنية.

وأخيرا يمكن القول بأنه على الرغم من التفاوت الواضح بين فصول هذا الكتاب، بسبب تقسيم الباحث العمل حسب عناصر البناء الخطابي الأرسطي، إلا أنه تناول نظرية الحجاج بشكلٍ فنّيّ دقيق، واقترح خطاطات علمية لتحليل الخطبة تحليلا حجاجيا، كما أن الاتجاهات التي تطرق لها الباحث في كتابه، تُعد حجر الأساس لنظرية الحجاج في العصر الحديث، وهي وإن اختلفت مشاربها ومنطلقاتها المنهجية والأصولية؛ إلا أنها تكشف لنا عن قيمة الحجاج باعتباره محور البلاغة الجديدة.

الحجاج عند طه عبد الرحمن:

ينطلق طه عبد الرحمن في نظريته الحجاجية الفلسفية، في كتابه " اللسان والميزان أو التكوثر العقلي"[82] (1998)، من دعوى أن الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، بناءً على أنه لا خطاب بغير حجاج[83]، لأن الخطاب ينبني على قصدين معرفيين هما[84]:

81 العمري؛محمد، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص71

82 قام عبد الرحمن طه في دراسته للحجاج، بالمزاوجة بين القديم والحديث الغربي، من أجل إيجاد رابط منطقي لغويّ ليطوعه في سبك نظريّة تأخذ بقوّة المنطق وسلاسة اللغة.

83 عبدالرحمن؛ طة، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012، ص213

84 عبدالرحمن؛ طة، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص225

1- قصد الإدعاء: وهو الاعتقاد الصريح للخطاب لما يقول من نفسه تمامُ الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة، فالمدعي هو عبارة عن المخاطِب الذي ينهض بواجب الاستدلال على قوله.

2- قصد الاعتراض: ويكون من المخاطب أو المنطوق له، فالمعترض هو عبارة عن المخاطَب الذي ينهض بواجب المطالبة بالدليل على قول المدعي.

ومن هنا نستنتج أن الحجاج عند طه عبد الرحمن هو كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها[85]. وبذلك يتضح أن حقيقة الخطاب ليست مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما هي الدخول على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب هي العلاقات الاستدلالية (الحجاج)، وليس التخاطبية وحدها. ويؤكد طه عبد الرحمن على وجوب أخذ العلاقات الاستدلالية في تعريف الخطاب، واعتبارها في إبراز خصائصه ووظائفه، بعد أن تبين أنها هي البانية لحقيقته.

ويصنف طه عبد الرحمن الحجاج إلى ثلاثة أصناف هي[86]:

1- الحجاج التجريدي: وهو الإتيان بالدليل على الدعوى على طريقة أهل البرهان، أي الاستدلال الذي ينبني على اعتبار الصورة وإلغاء المضمون والمقام، وهو من المراتب الدنيا للحجاج.

2- الحجاج التوجيهي: وهو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، والتوجيه هنا هو إيصال المستدل حجته إلى غيره. ويدعم هذا النوع من الحجاج، النظرية اللسانية المعروفة باسم (نظرية أفعال الكلام)، والتي ترد الأفعال إلى القصد والفعل، وهما عماد التوجيه.

3- الحجاج التقويمي: وهو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتًا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه، أو ما يسمى في النظرية اللسانية (بالتشخيص)؛ أي إنه ينبني أصلًا على اعتبار فعل الإلقاء وفعل التلقي معا على سبيل الجمع والاستلزام.

85 عبدالرحمن؛ طة، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،، ص226

86 عبدالرحمن؛ طة، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،، ص226-27-228

فالنوع الحجاجي الأول هو الاستدلال الذي يتعاطى فيه المحتج تقليد البرهان الصناعي، أما النوع الثاني فهو الاستدلال الذي يقتصر فيه المحتج على اعتبار وجهة المدعي وحدها. وأعلا هذه الأنواع هو النوع الثالث وهو الاستدلال الذي يأخذ فيه المحتج بوجهة المعترض، فضلا عن وجهته الخاصة بوصفه مدعيًا.

وبناءً على ذلك يقسم الباحث الحجج إلى ثلاثة أقسام وهي[87]:

1- الحجة التجريدية بوصفها بناءً استدلاليًا يستقل بنفسه.

2- الحجة التوجيهية بوصفها فعلا استدلاليًا يأتي به المتكلم.

3- الحجة التقويمية بوصفها فعلا استدلاليا يأتي به المتكلم بغرض إفادة المستمع مع نهوض المستمع بتقويم هذا الفعل.

ويحدد الباحث لكل حجة من هذه الحجج نموذجًا مخصوصًا من النماذج التواصلية الثلاثة (الوصل، الإيصال، الاتصال). ثم يوضح المراتب المختلفة لكل حجة من هذه الحجج، وهي[88]:

1- المراتب المتضادة وتوجد في الألفاظ الدالة على معانٍ يمكن ترتيبها بين طرفين متباينين.

2- المراتب الموجَّهة توجيهًا كميًا وتوجد في الألفاظ الدالة على معانٍ تقبل التدرج في اتجاه واحد.

3- المراتب الموجَّهة توجيهًا قصديًا وقد تدخل على المراتب والجمل لا على الألفاظ وحدها.

الحجاج عند أبي بكر الغزاوي:

على الرغم من أن دراسة الغزاوي[89]" اللغة والحجاج "(2006)، دراسة حديثة، إلا أنها تنتمي إلى البحوث النظرية الدلالية الحديثة التي تقدم تصورا جديدا للمعنى من حيث طبيعته ومجاله، وتقدم أيضا أفكارا ومقترحات هامة بخصوص عدد كبير من الظواهر اللغوية.

87 عبدالرحمن؛ طة، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،، ص255

88 عبدالرحمن؛ طة، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،، ص274-275

89 أسهم أبو بكر العزاوي في المضمار الحجاج بعدد من المقالات التي توزّعت بين دراسة الشعر والنثر دراسة حجاجية. من أهمها مقالة بعنوان:"نحو مقاربة حجاجية للاستعارة"، ومقالة:"الحجاج الشعري، نحو تحليل حجاجي لنص شعري"، ومقالة:"سلطة الكلام وقوة الكلمات".

ويرى الغزاوي بأن الحجاج الطبيعي هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها[90].

ويميز الغزاوي بين الاستدلال Raisonnement وبين الحجاج Argumentation لأنهما ينتميان إلى نظامين جد مختلفين، نظام يسمى بالمنطق، ونظام الخطاب. ويصرح بأن استدلالا ما لا يشكل خطابا بالمعنى القوي الذي يعطيه ديكرو لهذا المصطلح.

فالأقوال التي يتكون منها استدلال ما، مستقلة بعضها عن بعض، بحيث أن كل قول منها يعبر عن قضية ما، أي يصف حالة ما، أو وضعا، من أوضاع العالم، باعتباره وضعا واقعيا أو متخيلا. ولهذا فإن تسلسل الأقوال في الاستدلال ليس مؤسسا على الأقوال نفسها، ولكنه مؤسس على القضايا المتضمنة فيها، أي على ما تقوله أو تفترضه بشأن العالم.

أما الحجاج فهو مؤسس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب[91]. والحجة في نظر الغزاوي هي عبارة عن عنصر دلالي يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر، وقد ترد على شكل قول أو فقرة أو نص، أو قد تكون مشهدًا طبيعيًا أو سلوكًا غير لفظي إلى غير ذلك.

والحجة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق، والشيء نفسه بالنسبة للنتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما. وتتسم الحجج اللغوية بعدة سمات، يذكر منها على سبيل المثال[92]:

1- إنها سياقية: فالعنصر الدلالي الذي يقدمه المتكلم باعتباره يؤدي إلى عنصر دلالي آخر، فالسياق هو الذي يصيره حجة، وهو الذي يمنحه طبيعته الحجاجية، فالعبارة الواحدة قد تكون حجة أو نتيجة، أو غير ذلك حسب السياق.

2- إنها سببية: فلكل حجة قوة حجاجية معينة، فقد يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة، ويقدم خصمه حجة مضادة أقوى بكثير منها.

---

90 العزاوي؛ أبو بكر، اللغة والحجاج، ص16

91 العزاوي؛ أبو بكر، اللغة والحجاج، ص17

92 العزاوي؛ أبو بكر، اللغة والحجاج، ص19-20

3- إنها قابلة للإبطال: وعلى العموم، فإن الحجاج اللغوي نسبي ومرن وتدريجي وسياقي بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتمي.

ويسمي العزاوي العلاقة التي تربط بين الحجة والنتيجة "بالعلاقة الحجاجية"، وهي تختلف بشكل جذري عن علاقة الاستلزام أو الاستنتاج المنطقي.

أما السلم الحجاجي فهو علاقة ترتيبية للحجج، يرتبط به مفهوم الاتجاه الحجاجي (L`orientation argumentative) الذي يعني أنه إذا كان قول ما يمكن من إنشاء فعل حجاجي، فإن القيمة الحجاجية لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجي، وهذا الأخير قد يكون صريحا أو مضمرا، فإذا كان القول أو الخطاب مشتملا على بعض الروابط والعوامل الحجاجية، فإن هذه الأدوات والروابط تكون متضمنة لمجموعة من الإشارات والتعليمات التي تتعلق بالطريقة التي يتم بها توجيه القول أو الخطاب، أما في حالة كون القول غير معلم، فإن التعليمات المحددة للاتجاه الحجاجي تستنتج من الألفاظ والمفردات بالإضافة إلى السياق التداولي والخطابي العام[93].

الروابط والعوامل الحجاجية:

يرى الغزاوي بأن اللغة العربية تشتمل على عدد كبير من الروابط والعوامل الحجاجية التي لا يمكن تعريفها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجية، ويذكر منها: لكن، بل، إذن، حتى، لاسيما، إذ، لأن، ربما، تقريبا، لأن، مع ذلك، ربما، تقريبا، ما...إلخ.

ويميز بين الروابط والعوامل، فالروابط تربط بين قولين، أو بين حجتين على الأصح (أو أكثر)، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الإسترتيجية الحجاجية العامة. ويمكن التمثيل للروابط بالأدوات التالية: بل، لكن، لاسيما، إذن، لأن. أما العوامل الحجاجية، فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج)، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما. وتضم أدوات مثل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا[94].

93 العزاوي؛ أبو بكر، اللغة والحجاج، ص25

94 الغزاوي؛ أبو بكر، اللغة والحجاج، ص27

المبادئ الحجاجية:

هي الضامن الذي يضمن الربط بين الحجة والنتيجة، وهي تقابل مسلمات الاستنتاج المنطقي في المنطق الصوري أو الرياضي، هذه المبادئ هي قواعد تجعل حجاجا ما ممكنا[95].

ولعل ما يميز نظرية الحجاج في اللغة، أنها تدرس اشتغال الأقوال داخل خطاب ما، أي تسلسل الأقوال وتواليها داخل الخطاب بصورة استنتاجية. فالنظرية الحجاجية ترفض التمييز بين معنى القول والقيمة القولية، أي بين الدلالة والتداول، وترى أن معنى القول لا يمكن وصفه بتاتا في استقلال عن المقام والوظيفة القولية، بمعنى أن التداول أو المقام مؤشر في كل أجزاء المعنى. فتسلسل الأقوال والجمل لا يعتمد على المعنى الإخباري، وإنما يعتمد على المعنى الحجاجي أو القيمة الحجاجية للقول.

الفرق بين الحجاج في البلاغة الجديدة والبلاغة القديمة:

يمكن حصر أهم الفروق بين البلاغة القديمة والبلاغة الجديدة في نقطتين وهما:

1- الحجاج في البلاغة الجديدة يتسم بالمعقولية والحرية، فهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة، ومن أجل حصول التسليم برأي آخر بعيدًا عن الاعتباطية واللامعقول اللذين يطبعان الخطابة، وبعيدًا عن الإلزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل. أما الحجاج في البلاغة القديمة فهو عبارة عن مناورة وتلاعب بعواطف الجمهور وبعقله أيضًا، ودفعه دفعًا إلى القبول باعتباطية الأحكام، لا بمعقوليتها، كما أنه – الحجاج – يتميز بصرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب.

2- المتلقي في البلاغة الجديدة لم يعد سلبيًا، بل أصبح متلقيًا إيجابيًا فاعلًا، يتلقى ما يتلقاه ويفكر فيه، ثم يرد ويناقش ويفند ويدعم، لينتقل – بذلك – من موقع التلقي إلى موقع الإرسال، فالطرفان يتبادلان فيما بينهما المواقع. أما المتلقي في البلاغة القديمة فقد كان سلبيًا يقتصر دوره على التلقي فقط.
– تُعد العلاقة بين المتلقي والمرسل في البلاغة الجديدة، علاقة أفقية حيث يقف المتلقي بحكم إيجابيته في درجة موازية لدرجة المرسل. أما العلاقة بين المتلقي والمرسل في البلاغة القديمة، فهي علاقة رأسية فالمتلقي بحكم سلبيته يقف في درجة أدنى من درجة المرسل[96].

---

95 الغزاوي؛ أبو بكر، اللغة والحجاج، ص31

96علوي؛ حافظ إسماعيلي، مقدمة كتاب(الحجاج مفهومه ومجالاته) دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة العربية، ط1، ج1، عالم الكتب الحديث، إربد، 1431، ص10

يركز عبدالرحمن طه على الحجاج المنطقي، أما أبو بكر العزاوي فيهتم بدراسة الحجاج الطبيعي.

أنواع الحجاج وخصائصه:

إن تعدد وتباين حقول ومجالات الحجاج، تفضي بنا إلى القول بوجود أنواع عدة من الحجاج، فهناك الحجاج الفلسفي والحجاج الطبي والحجاج المنطقي، وهناك الحجاج البلاغي وهو ما قصدت الدراسة الوقوف عليه. والحقيقة أن هناك تباينٌ واختلافٌ بين هذه الأنواع الحجاجية، وقد يصعب فصل الحجاج عن حقل تعيينه وعن خطابه المرجعي[97]، إلا أنه يمكننا القول بأن الخطاب المرجعي للحجاج البلاغي هو البلاغة (Rhetoric).

الحجاج البلاغي:

البلاغة قبل كل شيء هي:" عتاد بنائي وتبليغي يتوسله الخطيب، أو القائل عموما، لفرض موضوعه أو رأيه أو قناعته، لأجل كسب تأييد الآخر أو التأثير فيه. إلا أن الصور البيانية والحيل المجازية واللغوية (فن الإيصال) وحدها لا تحقق التصديق والتدليل ما لم تسند بأدوات ترجيح الرأي وتسويغه عقليا. وهذه الأدوات هي التي يوفرها الحجاج أو المحاجة"[98].

ولقد كان منظور البلاغيين القدماء للصور البلاغية، منظور شكلانيا يرى أنها تضفي على القول جمالا، وتمنح السامع إمتاعا. إلا أن البلاغة الجديدة نظرت لتلك الصور من منظور حجاجي؛ أي كشف وظيفتها في الإقناع والتأثير[99].

فالصور البلاغية تكتسب قيمتها الحجاجية من كونها رموزا للانفعالات العاطفية، وبما تثيره من استحسان وانفعال لدى المتلقي، فلو أن المحاجج استطاع أن يضرب على أوتار العاطفة لدى المتلقين باعتبارها مدخل من مداخل الإقناع والتأثير؛ فإنه سيكون قادرا على إقناعهم بأفكاره أو إتباع سلوك

---

97 أعراب؛ حبيب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، "عناصر استقصاء نظري"، ضمن كتاب(الحجاج مفهومه ومجالاته) ص33-34

98 أعراب؛ حبيب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص45

99عبد المجيد؛جميل، مدخل إلى بلاغية الخطاب القضائي، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، ص109

بعينه، ذلك أن الأدلة العاطفية تقيم رباطا محكما من الثقة بين المتلقين والمحاجج، فالمتلقي الذي يتماهى عاطفيا مع المتحدث، يكون أكثر ميلا لقبول دعواه[100].

من هنا نستنتج أن البلاغة قد تؤثر وتستميل وتمتع، ولكنها لا تقنع وتفخم إلا إذا تلاحمت مع الحجج العقلية التي تخضع هي بدورها لمعيار الضعف والقوة. كما أن الحجاج لا يجد عناصره الأساسية إلا في المعاني البلاغية كأدوات إقناعية[101]، لذلك يصح القول بأن الحجاج البلاغي هو حجاج موجه للقلب والعقل معا. إذ يجمع بين المضمون العقلي للحجة وصورها البيانية، أو بين التبرير العقلي والمحسنات البيانية[102].

وتأسيسًا على ما سبق يمكن القول بأن هناك حجاجًا يمكن نعته بالبلاغي، أي هناك صنف من الحجاج يخضع في بنائه وترتيبه لقواعد البلاغة والبيان وهو يتسم بالسمات التالية[103]:

1- اشتراطه لرغبتين هما إرادة المتكلم (المؤثر والمقنع) وإرادة المتلقي (المتأثر والمقتنع).

2- خضوع حججه للتراتبية والتنظيم: القوة، الضعف، البدء، الختم، الإبطال، الإثبات...إلخ.

3- اشتماله على البعد الاستدلالي والبعد الامتاعي، أو الجمع بين البيان والبديع.

4- عدم قابليته للقولبة والصياغة المنطقية الشكلية والرمزية.

علاقة الحجاج بالشعر وتحولات المعنى:

تُعنى قراءتنا لنصوص شعر المعارضات في هذا الفصل بالحجاج وأساليبه. فالحجاج باعتباره فن الإقناع يحضر في كل خطاب، والأدب باعتباره ضربا من ضروب الخطاب التي تُنجز بواسطة اللغة يكون حجاجيا، بغض النظر عن اختلاف مظاهر الحجاج من خطاب أو نص إلى آخر. وهذا ما تؤكده

100 بتصرف: جميل عبد المجيد، مدخل إلى بلاغية الخطاب القضائي، ص 109

101 بتصرف: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص44-46

102 أعراب؛ حبيب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص45

103 أعراب؛ حبيب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص46

النظرية الحديثة، فـ" الحجاج يوجد حيث ما وجدتْ اللغة"[104] وهذا يتأكد مع المقولة المفتاح للعزاوي[105] في كتابه "الخطاب والحجاج" التي مفادها "أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية"[106].

والجاحظ(255) في حديثه عن فن الإقناع في كتابه البيان والتبيين لم يكن يفرق في استشهاداته على ما يذهب إليه بخطابات من أقوال العرب، بين الشعر والنثر إذ " يتعامل مع كل منهما بوصفه خطابا في هذا المضمار"[107]. ومما يؤكد خطابية الشعر قول ابن حيان(414)" من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحُججَ لا تؤخذ إلا منه، أعني {أن} العلماءَ والحكماءَ والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون:"قال الشاعر" وهذا كثير في الشعر، و" الشعر قد أتى به"، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة والشعر هو الحجة"[108]

ويعدُّ الشعرُ "خطابا، إذا توفرت فيه سمات الخطاب، مثل أي خطاب آخر. وقد يكون الخطاب كله شعرًا خالصًا، بوصفه سجالا بين طرفين كل منهما يحاجج الطرف الآخر شعرا، أو بوصفه حجاجا من طرفٍ واحدٍ. كما يمكن أن يكون الشعر جزءا من خطاب أعمّ بوصفه شاهد مثل المثل أو الحكمة"[109] ومما لاشك فيه أن الحجاج يحضر بشكلٍ كبيرٍ في الخطاب الشعري،فالشعر لا يهدف إلى نقل التجربة الفردية الذاتية، بل يهدف إلى الحث والتحريض والإقناع والحجاج، فالشاعر مثلًا يسعى من خلال شعره لإقناع محبوبته بحبه لها وهكذا.

---

104 الشهري؛ عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية، تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص452

105 أبو بكر العزاوي، أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بجامعة مولاي سليمان بمدينة بني ملال المغربية، وهو باحث متخصص في النظرية الحجاجية، صدرت له العديد من الدراسات مثل:اللغة والحجاج، الخطاب والحجاج، والحوار والحجاج والاختلاف .

106 العزاوي؛أبو بكر، الخطاب والحجاج، ط1، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، 2010، ص11

107 الشهري؛ عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية، تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص448

108 التوحيدي؛ أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد زين، د.ط، ج1، مكتبة الحياة، بيروت، ص136

109 الشهري؛ عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية، تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص506

ونحن بعد هذا كله نروم في هذه الدراسة إلى البحث عن أثر الحجاج في تحولات المعنى؛ باعتبار شعر المعارضات خطابا شعريا يقوم على الإقناع برؤية الشاعر المعارِض لذاته، وإنسانيته، ووطنيته، وقوميته. فشعر المعارضات خير ما يمثل علاقة الشعر بالحجاج؛ لأن المعارضة تعني المباراة والمحاكاة والمجاراة[110]، بمعنى أن يعجب شاعر من الشعراء بقصيدة شاعر آخر فيقوم بمعارضتها ومحاكاتها، وينظم على بحرها وقافيتها وموضوعها، ملتزما بذلك التزاما تاما أو محدودا، حريصا على أن يضاهي الشاعر المعارض إن لم يفقه ويتفوّق عليه. مستندًا إلى حججٍ تهدف إلى إقناع المتلقي، وذلك لأن الحجاج هو" فن الإقناع أو مجموعة من التقنيات التي تحمل المتلقي على الإقناع أو الإذعان والتسليم"[111].

والشاعر بذلك يستغل جميع إمكانات اللغة وطاقاتها، ووسائلها وآلياتها البلاغية في حمل المتلقي على الإقناع، كما يرى برلمان فالحجاج عنده " جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي على الإقناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقناع"[112].

ويمكن القول بأن هذه الدراسة تُعنى باختبار قدرة الخطاب الشعري على الحجاج، من منطلق كون الشعر ماهية ووظيفة تختلف عن ظرفية الحجاج والإقناع. ومن هنا كان التساؤل الذي يشغلنا هل يمكن أن يكون النص الشعري الإحيائي نصا حجاجيا؟ وهل يمكن أن يقوم النص الإحيائي بوظيفة حجاجية؟ هل يمكن أن يجتمع التخييل الذي ينبني عليه الشعر، مع الحجاج الذي يسعى إلى الإقناع؟ وأخيرًا هل يمكن أن يكون للحجاج في النص الإحيائي دورٍ في تحولات المعنى؟

الحقيقة أن هذه التساؤلات كانت تفرض نفسها على الباحثة، طيلة العمل على هذه الدراسة، ويمكننا القول بأن كل خطاب لغوي يخضع للحجاج، وبما أن النص الشعري نصٌ لغويٌ، يقوم على اللغة فهو يزخر بطاقة حجاجية، لا تطغى على أدبيته؛ لأن النص الأدبي" يحاجج، ولكنه لا يحاجج كغيره من النصوص والخطابات الأخرى، إنه يحاجج بأدبيته التي هي موضع تميزه وعلة اصطفائه"[113].

110 السماعيل؛ عبد الرحمن السماعيل، المعارضات الشعرية، دراسة تاريخية نقدية، ط1، نادي جدة الأدبي الثقافي، جدة، 1414، ص12

111 نقلا عن: سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ط1، عالم الكتب الحديث، 1430، ص14

112 نقلا عن: سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، ط1، عالم الكتب الحديث، 1430، ص14

113 عيد؛ محمد عبد الباسط، في حجاج النص الشعري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013، ص35

المحتويات

أولا: مفهوم الحِجاج. 3

الحجاج لغة: 3

الحجاج اصطلاحًا: 5

الحجاج في البلاغة القديمة: 8

1. البلاغة الأرسطية: 8

2. البصر بالحجة: 10

3. ترتيب الأقسام ("Disposito "Taxis"): 10

العبارة ("Flocutio "Lexis"): 10

البلاغة العربية القديمة: 11

الحجاج في البلاغة الجديدة: 16

الحجاج في البلاغة البنيوية: 23

الحجاج عند بول ريكور P.Ricoeur: 25

الحجاج في الدراسات العربية الحديثة: 26

الحجاج عند محمد العُمري: 26

الحجاج عند طه عبد الرحمن: 28

الحجاج عند أبي بكر الغزاوي: 30

الروابط والعوامل الحجاجية: 32

المبادئ الحجاجية: 33

الفرق بين الحجاج في البلاغة الجديدة والبلاغة القديمة: 33

أنواع الحجاج وخصائصه: 34

الحجاج البلاغي: 34

علاقة الحجاج بالشعر وتحولات المعنى: 35